خلاصة من تاريخ دمشق

وأثره على الأمّة

الجزء الثاني

انتقاء

د. عبد الله بن علي الميموني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله معزّ من يشاء بقدرته ومذلّ من يشاء بقهره لا إله غيره والصلاة والسلام على صفوته من خلقه نبيّنا محمد صلّى الله عليهِ وسلّم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين أمّا بعد

فهذا هو الجزء الثاني من هذا المنتقى المختصَر، وقد كنتُ ذكرتُ في أوّله دواعي الكتابة فيه وأنها ستكون بإيجازٍ، وقد جاءت أيضاً على عجلٍ هذا مع تقسّم الفكر في أمور أخرى من كتابة في علوم التفسير وغير ذلك.

والله المعين وحده.

والتاريخ سلسلة متّصلة ممتدّة لكنها متشعّبة جداً لا تسلُك منهجاً واحداً فيحتاج من يكتب في تاريخ بلدٍ أو أمّة للإشارة لما يتصل بالموضوع وما يؤثّر فيه، ولهذا ذكرتُ طرفاً من الأحداث الجسام والمعارك الكبيرة المتصلة بتاريخ دمشق ومشاهير حكّامها [1] مع الإشارة لبعض من عاصرهم في العراق ومصر.

و قد أشرتُ عرضاً إلى بعض القصص المهمّة بإيجازٍ كقصة تحرير السلطان الفاضل ملك المغرب: عبد المؤمن الموحّدي لمدينة (المهديّة) في تونس من الفرنجة بعد حكموها قرابة اثني عشر عاماً، وإنما ذكرتها عَرَضاً لفائدة رأيتها، ولارتباطها بحملة

---

(١)جمع العلامة صلاح الدين الصفدي (ت:٧٦٤هـ) كتاباً فيمن حكم دمشق اسمه: (تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب). مطبوع. وهي أرجوزة شرحها هو. وله رسالة في أمراء دمشق في الإسلام. طبعت أيضاً.

الصليبيين، فغزو الصليبيين كان شاملاً عامّاً فقد شمل الشام وما قاربها وبعض دول المغرب والأندلس، ولكن كان لكلّ قطرٍ ظروفه وأحواله وكان تباعد الأقطار كبيراً وبخاصة في تلك الأزمنة.

وتركت التعرّض لذكر أحوال الأندلس لتشعّبها لئلا يطول الكلام فيملّ أو يهجَرَ مراعاة للمقاصد التي ذكرتها في مقدمة الجزء الأول، وإنما ذكرتُ طرفاً موجزاً من أحداث مصر ـ لاتصالها بالشام في ذلك الوقت ولأنّ تحريرها كان على يدي جيوش الملك العادل نور الدّين زنكي سلطان الشام، وبها أقام فاتح القدس صلاح الدين الأيوبي دولته التي شملت فيما بعد مصر والشام واليمن وغيرها.

فيكون الناظر في هذا المنتقى قد ألقى نظرةً على جملة من أحداث ذلك العصر ـ المؤثّرة لتبدوَ له صفحة بل لمحةٌ من تاريخ ذلك الزّمان على التوالي مع تحرّي الإيجاز إلى الغاية.

ففي تلك التواريخ عبر كثيرة لا تنتهي.

وتلك الأيّام يداولها الله بين عباده لحكمة بالغة، فترفعُ أمّةٌ وتنخفض أخرى وتبرز أسرة مالكةٌ وتبورُ أخرى وتسود طائفة وتسفُل أخرى، وتبرز شخصيات قيادية في كلّ عصرٍ ـ ومصر ـ فتكونُ في جانب الحقّ أو تكونُ في معيّة الباطل فيُبتلَى بها الخلقُ نفعاً أو ضرّاً. ولله في خلقه شؤون. والعاقبة للمتقين.

وتمرّ لك الأحداث والمشاهد كأنها شريطٌ ذكرياتٍ يتسارعُ في مخيلةِ عاقلٍ عاش دهراً في الدّنيا وذاق حلوّها ومرّها وتنقّلت به خفضاً ورِفعة ثمّ حضره أجلُه ودنى رحيله فبقي متفكّراً يتذكّر بداياته وأعوامه ونهاياته وينظر في حاله ومآله ويمرّ بعقله وقلبه ابتداءُ

أمره وانتهاؤه فيرى كيف انقضى ذلك وتولّى كأنه طيف خيالٌ قد عرض له ثم جفل عنه فكأنه ما عاشــه وهو قد عايش كلّ لحظةٍ منه مسرــة أو حزناً راحة أو تعباً، ولكنه باد و زال كما تزول الأحلام.

أحلام نومٍ أوْ كظلٍّ زائلٍ،،، إن اللبيب بمثلها لا يخدعُ

تتمة أحداث سنة أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها اســتردَّ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ ســلطان الموحّدين في المغرب: مَدِينَةَ الْمَهْدِيَّةِ من الفرنجة وهي مدينة حصينة في تونس على البحر المتوسط لا تزال معروفة بهذا الاسم. استردّها مِنَ الْفِرِنْجِ بعد أن مكثت في أيديهم اثنتي عشرة سنة، فإنهم في سَنَةَ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ استولوا على مَدِينَةَ الْمَهْدِيَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا الْحَسَنِ بْنِ تَمِيمِ بن َادِيسَ الصِّنْهَاجِيِّ.

وقد كانوا في سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ فعلوا بِالْمُسْلِمِينَ الأفاعيل مِنَ الْقَتْلِ وَالنَّهْبِ في مدينة فِي زَوِيلَةَ الْمَدِينَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِلْمَهْدِيَّةِ فهَرَبَ مِنْ أهلها جَمَاعَةٌ وَقَصَدُوا عَبْدَ الْمُؤْمِنِ صَاحِبَ الْمَغْرِبِ، وَهُوَ بِمَرَّاكُشَ، يَسْتَجِيرُونَهُ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ أَكْرَمَهُمْ، وَأَخْبَرُوهُ بِمَا جَرَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي مُلُوكِ الْإِسْلَامِ مَنْ يُقْصَدُ سِوَاهُ، -وقد كان نور الدين في الشام بعيداً عنهم - فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَأَطْرَقَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: أَبْشِرُوا، لَأَنْصُرَنَّكُمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

وأمر بِعَمَلِ الرَّوَايَا وَالْقِرَبِ وَالْحِيَاضِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَسَاكِرُ فِي السَّفَرِ، وَكَتَبَ إِلَى جَمِيعِ نُوَّابِهِ فِي الْغَرْبِ، وَكَانَ قَدْ مَلَكَ إِلَى قَرِيبِ تُونُسَ، يَأْمُرُهُمْ بِحِفْظِ جَمِيعِ مَا يَتَحَصَّلُ مِنَ الْغَلَّاتِ، وَأَنْ يُتْرَكَ فِي سُنْبُلِهِ، وَيُخَزَّنَ فِي مَوَاضِعِهِ لئلا يفسد ، وَأَنْ يَحْفِرُوا الْآبَارَ فِي الطُّرُقِ، فَفَعَلُوا جَمِيعَ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَجَمَعُوا الْغَلَّاتِ ثَلَاثَ سِنِينَ وَنَقَلُوهَا إِلَى الْمَنَازِلِ، وَطَيَّنُوا عَلَيْهَا، فَصَارَتْ كَأَنَّهَا تِلَالٌ. فَلَمَّا كَانَ ف هَذِهِ السَّنَةِ سَارَ عَنْ مَرَّاكُشَ. فحصارها

كان في سنة (٥٥٤هـ) واستمر سبعة أشهر ؟ ،وأمّا استردادها فكان في سنة (٥٥٥هـ) .[٢]

وقد توفي عبد المؤمن سلطان المغرب وملك الموحدين: سنة ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

سَنَةُ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها تُوُفِّيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقْتَفِي لِأَمْرِ اللَّهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُسْتَظْهِرِ بِاللَّهِ وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا.

وَكَانَ عَادِلًا حَسَنَ السِّيرَةِ موصوفاً بالحلم والكرم والرَّأْيِ السديد وَالْعَقْلِ، شُجَاعًا مِقْدَامًا. وبه أحيا الله عهود الخلفاء الأقوياء من العباسيين وغيرهم.

قال ابن الأثير: (وَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اسْتَبَدَّ بِالْعِرَاقِ وَأَوَّلُ خَلِيفَةٍ تَمَكَّنَ مِنَ الْخِلَافَةِ وَحَكَمَ عَلَى عَسْكَرِهِ وَأَصْحَابِهِ ،مُنْفَرِدًا عَنْ سُلْطَانٍ يَكُونُ حاكماً عليه مِنْ أَوَّلِ أَيَّامِ تسلّط الدَّيْلَمِ على خلفاء بغداد إِلَى الْآنِ إلا أن يكون المعتضد بالله)اهـ. بمعناه. يعني إلى زمان ابن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠هـ).

يعني أن الْمُعْتَضِدُ بِاللَّهِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ الْمُوَفَّقِ بْنِ الْمُتَوَكِّلِ كان أيضاً خليفة مستقلّا وكان يسيطر على أمور الخلافة في العراق وغيرها وكان شجاعاً مقداماً مهيباً فلذلك استثناه لكونه كان قد أعاد هيبة الدولة وأخضع قادة التّرك وغيرهم. وكان أبوه الموفّق ولي العهد وقائد الجيوش قد أعاد قبله هيبة دولة بني العباس لكنه توفي قبل أن يلي

---

(٢)معجم البلدان لياقوت: (٥/ ٢٣١) وتاريخ ابن الأثير: ٩/ ٢٦١.

الخلافة فتولاها ابنه المعتضد هذا وسار سيرة أبيه وقد توفي المعتضد سنة (٢٨٩هـــ). وخلافته مدّتها قرابة عشر سنوات.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

وفيها رجع أكثر الناس بلا حجّ وإنما كمل حج شرذمة منهم ، وَلَمْ يَتِمَّ الْحَجُّ لِأَكْثَرِ النَّاسِ لِصَدِّهِمْ عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ وَالطَّوَافِ وَالسَّعْيِ، فَمَنْ دَخَلَ يَوْمَ النَّحْرِ مَكَّةَ وَطَافَ وَسَعَى كَمُلَ حَجُّهُ، وَمَنْ تَأَخَّرَ عَنْ ذَلِكَ مُنِعَ دُخُولَ مَكَّةَ لِفِتْنَةٍ جَرَتْ بَيْنَ أَمِيرِ الْحَاجِّ وَأَمِيرِ مَكَّةَ.

سَنَةُ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها وِزَارَةِ شَاوُرَ لِلْعَاضِدِ الخليفة الفاطمي بِمِصْرَ وستأتي أخبار شاور مع أسد الدين وصلاح الدين.

وفي هذا العام جمع نور الدّين جيشه، وسار لغزو الفرنج، ونزل تحت حصن الأكراد ومن عزمه محاصرة طرابلس، فتجمعت الفرنج وكبسوا المسلمين، فلم يشعروا إلا بظهور الصلبان من وراء الجبل فلم يستمكن المسلمون من الأهبة، فوقع فيهم القتل والأسر، وقصدوا خيمة السلطان نور الدّين فنجا نور الدّين، ونزل على بحيرة حمص وقال: والله لا أستظلّ بسقفٍ حتى آخذَ بالثأر.

وفيها توفي سلطان المغرب والأندلس: عبد المؤمن بن علي القيسي التلمساني.

مات غازيًا بمدينة سلا ،وكان من خيار الملوك موصوفاً بالعدل والفضل وكثرة الجهاد وحسن السياسة قال الذهبي بعد أن أثنى عليه: (كان كثيرَ المحاسن متين الدّيانة قليلَ المثلِ وكان يقرأ كلّ يوم سبعًا من القرآن [٣])اهـ.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها جهّز نور الدّين جيشًا عليهم أسد الدّين شيركوه إلى مصر نجدة لشاور، لكونه قصده واستجار به من ضرغام، وكان قد نازعه في الوزارة وغلب عليها. وطلب من نور الدّين إرسال العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدّين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون نائب نور الدّين مقيماً بعساكره في مصر، فأول دخولهم قتل أسد الدّين شيركوه الملك المنصور الذي كان قد قهر شاور، وأخذ وزارة مصر منه. ثمّ تمكن شاور ولم يلتفت إلى شيركوه، ثم إن شاور غدر وعاد عما كان قرره مع نور الدّين وأمر أسد الدّين بالعود إلى الشام فامتنع فأرسل شاور يستنجد بالفرنج، فسارعوا إليه، وبذل لهم ذهبًا عظيمًا، فجاؤوا من القدس والسواحل، والتجأ شيركوه وعسكر الشام إلى مدينة يقال لها بلبيس ، وجعلها ظهرًا له، وحصروه ثلاثة أشهر وهو يقاتلهم فبينا هم كذلك إذ أتاهم الصريخ أنّ نور الدّين أخذ حصن حارمٍ منهم وسار إلى بانياس، فُسقط في أيديهم، وهمّوا بالعود إلى بلادهم ليحفظوها، وطلبوا الصُّلح مع شيركوه، فأجابهم لقلة الأقوات، وسار شيركوه إلى الشّام سالمًا.

---

(٣)العبر: ٣/ ٢٩.

وَكَانَ أَسـد الدّين وَأَخُوهُ الْأَكْبَرَ نجم الدّين أَيُّوب والد صـلاح الدّين من الفرسـان الشجعان من قواد نور الدّين.

وهما ابْنا شاذي من بلد يقع في أذْرَبِيجان وأصلهما من الأكراد الروادية وَهَذَا الْقَبِيل من أشرف الأكراد. وقيل، بل أصل هذا البيت خاصة من العرب. والصحيح في نسبهم أنهم أكراد من أشراف الأكراد.

وفيها وقعة حارم اجتمع فيها عدد من ملوك الفرنجة منهم صاحب أنطاكية وبعد قتال عظيم انتصر المسلمون بقيادة نور الدّين وكان في جملة الأسرى من ملوك الفرنجة صاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وفيها بعد فتح قلعة حارم افتتح قلعة بانياس في آخر السنة. وكان لها بيد الفرنج ستة عشر عامًا. وقيل كان فتح بانياس سنة (٥٦٠هـ).

في سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها افتتح نور الدّين حصن المنيطرة وَكان بيد الفرنج.

وفيها ظهر ببغداد الرفض والسبّ للصحابة.

قصة عودة جند نور الدّين إلى مصر ثم تملّكها وقصة صلاح الدّين في مصر

في سنة اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَخمْس مئة

عَاد أَسد الدّين إِلَى مصر وَقد كَانَ بعد رُجُوعه من مصر لَا يزَال يحدث نَفسه بقصدها ومعاودتها حَرِيصًا على الدُّخُول إِلَيْهَا يتحدث بِهِ مَعَ كل من يَثِق إِلَيْهِ وَكَانَ مِمَّا يهيجه على الْعود زِيَادَة حقده على شاور وَمَا عمل مَعَه فَلَمَّا كَانَ هَذِه السّنة تجهز وَسَار إِلَيْهَا وسيَّرُ نورُ الدّين مَعَه جمَاعَة من الْأُمَرَاء وَابْن أَخِيه صَلَاح الدّين يُوسُف.

ثم إِن أَسد الدّين جدَ فِي السّير على البرّ وَترك بِلَاد الإفرنج عَن يَمِينه فوصل إِلَى الديار المصرية وَقصد إطفيح وَعبر النّيل عِنْدهَا إِلَى الْجَانِب الغربي وَنزل بالجيزة مُقَابل مصر وَتصرف فِي الْبِلَاد الغربية وَأقَام بهَا نيفاً وَخمسين يَوْمًا.

وَكَانَ شاور لما بلغه مَجِيء أَسد الدّين راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم فَأتوهُ مسرعين فَتَارَة يحثّهم طمعهم فِي ملك مصر على الْجدّ والتشمير وَتارَة يحدوهم خوفهم من أَن يملكهَا عساكر نور الدّين فالرجاء يقودهم وَالْخَوْف يسوقهم فَلَمَّا وصلوا إِلَى مصر عبروا إِلَى الْجَانِب الغربي وَكَانَ أَسد الدّين وجيشه قد سَارُوا إِلَى الصَّعِيد فبلغوا مَكَانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وَرَاءَهُمْ فأدركوهم بِهِ وَكَانَ قد أرسل إِلَيْهِم جواسيس فعادوا وَأَخْبرُوهُ بِكَثْرَة عَددهمْ وجدّهم فِي طلبه فعزم على لقائهم وقتالهم وَأَن تحكم السيوف بَينه وَبينهمْ إِلَّا أَنه خَافَ من أَصْحَابه أَن تضعف نُفُوسهم عَن الثَّبَات فِي هَذَا الْمقَام الْخطر لقلَّة عَددهمْ وبعدهم عَن بِلَادهمْ فاستشارهم فكلهم أَشَارَ عَلَيْهِ بعبور النّيل إِلَى الْجَانِب الشَّرْقِي وَالْعود إِلَى الشَّام وَقَالُوا لَهُ إِن نَحن انهزمنا وَهُوَ الَّذِي لَا شكّ فِيهِ فَإِلَى أَيْن نلتجئ وبمن نحتمي وكل من فِي هَذِه الديار عدوٌّ لنا وكان عددهم ألفا فَارس وقد بعدُوا عَن دِيَارهمْ وعدوهم عدده يبلغ عشرات الْأُلُوف ثم قام إِنْسَان من مماليك نور الدّين وكان شجاعا مشهوراً وَقَالَ من يخَاف الْقَتْل والجراح والأسر فَلَا يخْدم الْمُلُوك بل يكون فلاحاً أَو مَعَ النِّسَاء فِي بَيته وَالله لَئِن عدتم إِلَى الْملك الْعَادِل من غير غَلَبَة وبلاء تعْذرون فِيهِ ليأخذنّ إقطاعاتكم وَيَقُول لكم أتأخذون أَمْوَال الْمُسلمين وتفرّون عَن عدوّهم وتُسْلِمون مثل هَذِه الديار المصرية يتَصَرَّف فِيهَا الْكفَّار؟

قَالَ أَسـد الدّين هَذَا رَأْيِي وَبِه أعمل وَ وَافَقَهُمَا صَـلَاح الدّين يُوسُـف بن أَيُّوب ثمَّ كثر الموافقون لَهُم على الْقِتَال فـاجتمعت الْكَلِمَـة على اللِّقَـاء فَـأَقَـامَ بمكـانـه حَتَّى أدْركـهُ المصرــيون والفرنج وَهُوَ على تعبئة جعل الأثقال فِي الْقلب يتكثر بهَا وَلِأَنَّهُ لم يُمكنهُ أَن يَتْرُكهَا بمَكَان آخر فينهبها أهل الْبِلَاد ثمَّ إِنَّه جعل صَــلَاح الدّين ابْن أَخِيه فِي الْقلب وَقَالَ لَهُ وَلمن مَعَه إِن الفرنج والمصريين يظنون أنني فِي الْقلب فهم يجْعَلُونَ جمرتهم بإزائه وحملتهم عَلَيْهِ فَإِذا حملُوا عَلَيْكُم فَلَا تَصْــدُقوهم الْقِتَال وَلَا تُهلكوا نفوســكم واندفعوا بَين أَيْديهم فَإِذا عَادوا عَنْكُم فَارْجِعُوا فِي أَعْقَابهم وَاخْتَارَ من شجعان أَصْحَابه جمعاً يَثِق بهم وَيعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم فِي الميمنة فَلَمَّا تقَابل الطائفتان فعل الفرنج مَا ذكره أَســد الدّين وحملوا على الْقلب ظنا مِنْهُم أَنه فِيهِ فَقَاتلهُمْ من بِهِ قتالا يَسِــيرا ثمَّ انْهَزمُوا بَين أَيْديهم فتبعوهم فَحمل حِينَئِذٍ أَســد الدّين فِيمَن مَعَه على من تخلف من الفرنج الَّذين حملُوا على الْقلب من الْمُســلمين والفرنج فَهَزَمَهُمْ وَوضـع السَّـيْف فيهم فـأثخن وَانْهَزَمَ الْبَـاقُونَ فَلَمَّا عَـاد الفرنج من أثر المنهزمين الَّـذين كَـانُوا فِي الْقلـب رَأَوْا مَكَان المعركة من أَصْحَابهم بلقعاً لَيْسَ بهَا مِنْهُم ديار فَانْهَزمُوا أَيْضـا قيل: وَكَانَ هَذَا من أعجب مَا يؤرّخ أَنّ ألفي فَارس تهزم عَسَاكِرَ مصر وفِرنج السَّاحِل.

ثمَّ سَـار أَسـد الدّين إِلَى ثغر الْإِسْكَنْدَرِيَّة ووصـل إليها فتسـلمها من غير قتال سـلمهَا أَهلهَا إِلَيْهِ فاسـتناب بهَا صَـلَاح الدّين ابْن أَخِيه وَعَاد إِلَى الصَّـعِيد وتملكه وَأَقَام بِهِ حَتَّى صَـامَ رَمَضَـان وأقامت الفرنج بالقاهرة ثم قصـدوا الإسـكندرية وفيها صـلاح الدّين فحاصروه أربعة أشهر ثمّ كرّ أسد الدّين منجدًا له فترحلت الفرنج بعد معاهدة وصلح معهم، وصـالح شـاور وزير الفاطميين أسـد الدّين على خمسـين ألف دينار فأخذها أسـد

الدّين ونزل إلى الشام. فهذه كانت المرة الثانية لذهاب صلاح الدّين مع عمه إلى مصر في جيش نور الدّين.

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة أنعم السلطان نور الدّين على أسد الدّين شيركوه بحمص وأعمالها فتملّكها، ثم صارت لذرّيته.

سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها كان مسيرُ أسدّ الدّين إلى مصر المسير الثالث، وذلك أنّ الفرنج قصدت الديار المصرية في جمعٍ عظيم، وكان السلطان نور الدّين في جهة الشمال ونواحي الفرات، فطلعوا من عسقلان، وأتوا مدينة بَلْبِيس فملوكها، واستباحوها، وَسَارُوا مِنْ بِلْبِيسَ إِلَى مِصْرَ، فَنَزَلُوا إِلَى الْقَاهِرَةِ وَحَصَرُوهَا، فَخَافَ النَّاسُ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِهِمْ كَمَا فَعَلُوا بِأَهْلِ بِلْبِيسَ، فَحَمَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْهُمْ عَلَى الِامْتِنَاعِ، فَحَفَظُوا الْبَلَدَ، وَقَاتَلُوا دُونَهُ وَبَذَلُوا جُهْدَهُمْ فِي حِفْظِهِ، فَلَوْ أَنَّ الْفِرِنْجَ أَحْسَنُوا السِّيرَةَ فِي بِلْبِيسَ لَمَلَكُوا مِصْرَ وَالْقَاهِرَةَ ؟ وَأَمَرَ شَاوُرُ بِإِحْرَاقِ مَدِينَةِ مِصْرَ خوفاً من الفرنج وَأَمَرَ أَهْلَهَا بِالِانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى الْقَاهِرَةِ، فلما ضايقوا القاهرة بعث إلى ملكهم يطلب الصلح على ألف ألف دينار يُعجّل له بعضها. فأجابه ملك الفرنج إلى ذلك وحلف له، فحمل إليه شاور مئة ألف دينار وماطله بالباقي وَرَأَى الْفِرِنْجَ أَنَّ الْبِلَادَ قَدِ امْتَنَعَتْ عَلَيْهِمْ، وَرُبَّمَا سُلِّمَتْ إِلَى نُورِ الدّين، فَأَجَابُوا كَارِهِينَ، وَقَالُوا: نَأْخُذُ الْمَالَ، فَنَتَقَوَّى بِهِ ثم نعودُ.

وكاتب في غضونِ ذلك الملك العادل نور الدّين يستنجد به، وسوّد كتابه، وجعل في طيّه ذوائب نساءه، وواصل كتبه يستحثّه، فساق أسد الدّين من حمص إلى حلب في ليلة.

قال القاضي بهاء الدّين يوسف بن شدّاد: قال لي السلطان صلاح الدّين: كنتُ أكرهُ الناس في الخروج إلى مصر هذه المرة، وهذا معنى قوله: (أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) [٤]. قالوا: وأعطى نورُ الدّين الأموالَ والرّجال لأسدِ الدّين وَأَضَافَ معه جَمَاعَةً أُخْرَى مِنَ الْأُمَرَاءِ الشجعان ، وقال له: إنْ تأخرتَ عن مصر سرتُ أنا بنفسي، فإن ملكها الفرنج لا يبقى معهم بالشام مقام. قال صلاح الدّين فالتفت إليّ عمي وقال: تجهّز يا يوسف. قال :فكأنما ضرب قلبي بسكين! فقلت: والله لو أُعطيتُ ملك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية من المشاقّ ما لا أنساه. فقال عمّي لنور الدّين: لا بدّ من مسيره معي، فأمرني نور الدّين وأنا أستقيله، وانقضى المجلس. ثم قال نور الدّين: لا بدّ من مسيرك مع عمك. فشكوت الضائقة، فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت. وكان نور الدّين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، قال صلاح الدّين: ثم أَعْطَانِي الله من ملكهَا مَا لَا كنت أتوقعه قال: فسرتُ معه [٥].

قالوا :فَلَمَّا قَارَبَ أسد الدّين وجيشه مِصْرَ رَحَلَ الْفِرِنْجُ عَنْهَا عَائِدِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ خَائِبِينَ مِمَّا أَمَّلُوا، وَسَمِعَ نُورُ الدّين بِعَوْدِهِمْ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِضَرْبِ الْبَشَائِرِ فِي الْبِلَادِ، وَبَثَّ رُسُلَهُ فِي الْأَفَاقِ مُبَشِّرِينَ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ كَانَ فَتْحًا جَدِيدًا لِمِصْرَ وَحِفْظًا لِسَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ وَغَيْرِهَا.

وَدَخَلَ إِلَيْهَا أسد الدّين وَاجْتَمَعَ بِالخليفة الْعَاضِدِ لِدِينِ اللهِّ الفاطمي المغلوب على أمره، وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَفَرِحَ بِهِ أَهْلُ مِصْرَ، وَأُجْرِيَتَ عَلَيْهِ وَعَلَى عَسْكَرِهِ الْجِرَايَاتُ الْكَثِيرَةُ، وَلَمْ

---

(٤)النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية للقاضي ابن شداد: صـ٧٩ و الروضتين في أخبار الدولتين للحافظ أبي شامة: ٢/ ٥٢

(٥)الروضتين في أخبار الدولتين للحافظ أبي شامة: ٢/ ٥٢

يُمْكِنْ شَاوُرُ الْمَنْعَ عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ رَأَى الْعَسَاكِرَ كَثِيرَةً مَعَ شِيركُوهْ وَهَوَى الْعَاضِدِ مَعَهُمْ، فَلَمْ يَتَجَاسَرْ عَلَى إِظْهَارِ مَا فِي نَفْسِهِ، وَشَرَعَ شاورُ يُمَاطِلُ أَسَدَ الدّين فِي تَقْرِيرِ مَا كَانَ بَذَلَ لِنُورِ الدّين مِنَ الْمَالِ، وَإِقْطَاعِ الْجُنْدِ، وَإِفْرَادِ ثُلُثِ الْبِلَادِ لِنُورِ الدّين، ثُمَّ إِنَّهُ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ دَعْوَةً يَدْعُو إِلَيْهَا أَسَدَ الدّين وَالْأُمَرَاءَ الَّذِينَ مَعَهُ، وَيَقْبِضَ عَلَيْهِمْ، وَيَسْتَخْدِمَ مَنْ مَعَهُمْ مِنَ الْجُنْدِ، فَيَمْنَعَ بِهِمُ الْبِلَادَ مِنَ الْفِرِنْجِ، فَنَهَاهُ ابْنُهُ الْكَامِلُ، وتجادلا فقال ابنه: والله لَأَنْ نُقْتَلَ وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ وَالْبِلَادُ إِسْلَامِيَّةٌ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُقْتَلَ وَقَدْ مَلَكَهَا الْفِرِنْجُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَوْدِ الْفِرِنْجِ إِلَّا أَنْ يَسْمَعُوا بِالْقَبْضِ عَلَى شِيركُوهْ ، وخَافُ عسكرُ نور الدّين شَرَّ شاور فاتَّفَقَ صَلَاحُ الدّين مع بعض القادة عَلَى قَتْلِ شَاوُرَ، فَأَعْلَمُوا أَسَدَ الدّين، فَنَهَاهُمْ عَنْهُ، فَسَكَتُوا وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْعَزْمِ مِنْ قَتْلِهِ، فَاتَّفَقَ أَنَّ شَاوُرَ قَصَدَ عَسْكَرَ أَسَدِ الدّين عَلَى عَادَتِهِ، فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَلَقِيَهُ صَلَاحُ الدّين وَخَدَمُوهُ، وَأَعْلَمُوهُ بِأَنّ شِيركُوهْ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ، فَقَالَ: نَمْضِي إِلَيْهِ، فَسَارُوا جَمِيعًا، فَسَايَرَهُ صَلَاحُ الدّين وقائد آخر معه وأَلْقَيَاهُ إِلَى الْأَرْضِ عَنْ فَرَسِهِ، فَهَرَبَ أَصْحَابُهُ عَنْهُ، فَأُخِذَ أَسِيرًا، فَلَمْ يُمْكِنْهُمْ قَتْلُهُ بِغَيْرِ أَمْرِ أَسَدِ الدّين، فَتَوَكَّلُوا بِحِفْظِهِ، وَسَيَّرُوا فَأَعْلَمُوا أَسَدَ الدّين الْحَالَ، فَحَضَرَ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ إِلَّا إِتْمَامُ مَا عَمِلُوهُ

وَدَخَلَ أَسَدُ الدّين الْقَاهِرَةَ وخلعَ عليه العاضد خلعة الوزارة وَلُقِّبَ بِالْمَلِكُ الْمَنْصُور أَمِير الْجُيُوشِ وصار الآمر الناهي وصفا له الأمر لكنّ أَسَدِ الدّين توفي بعد خمسة وستين يوماً من ولايته.

وكان أسد الدّين فاضلاً شجاعاً وكان هو وأخوه من أَعْظَمَ أُمَرَاءِ نورالدّين.

وقلّد العاضدُ صلاحَ الدّين الأمور، ولقبه بـــ:الملك النّاصر وكان صلاح الدّين يقول: لما يسّر الله ديار مصر: علمتُ أنّه أراد فتح السّاحل، لأنّه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب الأمر لصلاح الدين استمرّ يشن الغارات على الإفرنج.

وفي هذا التاريخ كان ابتداء الدولة الأيوبية، وأخذت الدولة المصرية في الضعف والانحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين [٦] كما سيأتي.

وكان في جيش أسد الدّين أُمَرَاء بعضُهم أكبر سنّاً من صلاح الدينَ يُرِيدُونَ الْأَمْرَ لِأَنْفُسِهِمْ فأتمّ الله الأمر لصلاح الدّين بعد أحداث حصلت وَاسْتَمَالَ صَلَاحُ الدّين قُلُوبَ النَّاسِ، وَبَذَلَ الْأَمْوَالَ، فَمَالُوا إِلَيْهِ، وَأَحَبُّوهُ، وَضَعُفَ أَمْرُ الْعَاضِدِ، ثُمَّ أَرْسَلَ صَلَاحُ الدّين يَطْلُبُ مِنْ نُورِ الدّين أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ إِخْوَتَهُ وَأَهْلَهُ، فَأَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِ وَعَزَلَ صلاح الدّين جَمِيعَ الْخَدَمِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَ قَصْرِ الْخِلَافَةِ بعد محاولة فاشلة من بعضهم لمراسلة الفرنج والانقلاب على صلاح الدّين وَاسْتَعْمَلَ صلاح الدّين عَلَى الْجَمِيعِ بَهَاءَ الدّين قَرَاقُوشَ، وَهُوَ خَصِيٌّ أَبْيَضُ.

وفي سنة خمس وستين وخمسمائة دخل نجم الدّين أيوب مصر، فخرج العاضد إلى لقائه بنفسه، وتأدّب ابنه صلاح الدّين معه، وعرض عليه منصبَهُ.

وفيها توفي قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل أخو نور الدين، وكان من أحسن الملوك سيرة.

---

(٦)مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل الحموي:(١/ ١٧١).

ونزلت الفرنج على دمياط في صفر، فحاصروها واحداً وخمسين يوماً ثمّ رحلوا خائبين، وذلك أنّ نور الدّين وصلاح الدّين أجلبا عليها برّا وبحرا، وأغارا على بلادهم.

سَنَةُ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ فيها سَارَ صَلَاحُ الدّين عَنْ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الْفِرِنْجِ، فَأَغَارَ عَلَى أَعْمَالِ عَسْقَلَانَ وَالرَّمْلَةِ، وَهَجَمَ عَلَى رَبَضِ غَزَّةَ فَنَهَبَهُ، وَأَتَاهُ مَلِكُ الْفِرِنْجِ فِي قِلَّةٍ مِنَ الْعَسْكَرِ مُسْرِعِينَ لِرَدِّهِ عَنِ الْبِلَادِ، فَقَاتَلَهُمْ وَهَزَمَهُمْ، وَأَفْلَتَ مَلِكُ الْفِرِنْجِ.

وفيها بنى صلاح الدّين مَدْرَسَةً لِلشَّافِعِيَّةِ، وَأَزَالَ مظالم كثيرة ، وَعَزَلَ قُضَاةَ الْمِصْرِيِّينَ الفاطميين، وَكَانُوا شِيعَةً، وَأَقَامَ قَاضِيًا شَافِعِيًّا فِي مِصْرَ.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائة قُطِعَتْ خُطْبَةُ الْعَاضِدِ لِدِينِ اللَّهِ الفاطمي آخر خلفاء العبيديين بمصر ـ وكان نُورُ الدّين مَحْمُودُ كتب إلى صلاح الدّين يَأْمُرُهُ بِقَطْعِ الْخُطْبَةِ للفاطميين وَإِقَامَةِ الْخُطْبَةِ للخليفة المستضيء العباسي ، فَامْتَنَعَ صَلَاحُ الدّين أوّل الأمر، وَاعْتَذَرَ بِالْخَوْفِ مِنْ قِيَامِ أَهْلِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَيْهِ لِمَيْلِ كثير منهم إِلَى الْعَلَوِيِّينَ فألحّ عليه نور الدّين فقطع الخطبة وخطبَ للعباسيين.

وَكَانَ الْعَاضِدُ الفاطمي قَدِ اشْتَدَّ مَرَضُهُ فَلَمْ يُعْلِمْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ بِقَطْعِ الْخُطْبَةِ حتى توفي.

ثم تسلّم صلاحُ الدّين قصر ـ العاضد وفيه من الْأَعْلَاقِ النَّفِيسَةِ وَالْأَشْيَاءِ الْغَرِيبَةِ والجواهر والأموال مالا يكاد يحصى.

وكان صلاح الدّين لا يخرج عن أمر نور الدّين وكان نور الدّين يبجله ويعرف له قدره، ولكن جرى فِي هَذِهِ السَّنَةِ أُمُورٌ أَوْجَبَتْ أَنْ تَأَثَّرَ نُورُ الدّين مِنْ صَلَاحِ الدّين رحمهما الله،

فقد سار نور الدّين لحصار الفرنج في الكَرَك [٧] وأمر صلاح الدّين أن يسير من مصر ليجتمعا على حصاره معاً ووصل نور الدّين ولكن تأخر صلاح الدّين ثم أرسل يعتذرُ، وكان بعض خواص صلاح الدّين خوّفوه من الاجتماع مع نور الدّين فلم يقبل نور الدّين عُذره.

وهمّ بالدخول إلى مصر وعزْل صلاح الدّين عنها. ثم إنّ نجم الدّين والد صلاح الدّين أشار على ابنه بمكاتبة نور الدّين والخضوع له فأرسل إليه واعتذر وخضع ففتر عنه وانشغل بما كان يعالجه من أمور عظيمة من الجهاد وأمور المسلمين.

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة

افتتح شمس الدولة أخو صلاح الدّين برقة ، ثم سار بعد ذلك وافتتح اليمن.

وفيها هزم مليح بن لاون الأرمني النصراني عسكر الروم، وقد جهز إليه صاحب الرّوم جيشا كثيفاً، فالتقاهم مليح هذا، ومعه طائفةٌ من عسكر المسلمين، فهزمهم.

وذلك أن نور الدّين رحمه الله كان قد استخدمه وأقطعه بلاداً واستماله، وظهر له منه نصحه، وكان ملازما لخدمة نور الدّين، معينا له على الفرنج، ولما قيل لنور الدّين في معنى استخدامه وإعطائه بلاد سيس قال: أستعين به على قتال أهل ملّته وأُريح طائفة

(٧)قلعة حصينة جدّا مشهورة في طرف الشام: معجم البلدان:٤/ ٤٥٣ وتقع الْكَرْكُ حالياً في الأردن وتَبْعُدُ قُرَابَةَ (١١٥) كَيْلًا جَنُوبَ عَمَّان مَعَ مَيْلٍ إلَى الْغَرْبِ، يَمُرُّ بِهَا طَرِيقٌ يَصِلُ الْعَقَبَةَ بِعَمَّانَ، وَلَا يَمُرُّ بِمَعَانٍ. معجم الْمَعَالِمِ الْجُغْرَافِيَّةِ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ لعاتق البلادي: صـ ٢٩٧. و المعالم الأثيرة في السنة والسيرة لشراب:صـ ٢٧٩.

من عسكري، وأجعله سدّاً بيننا وبين صاحبِ القسطنطينية. وهذا من حنكة وسياسة نور الدين وبعد نظره.

سنة تسع وستين وخمسمائة

فيها توفي السلطان العادل المجاهد الصالح :نور الدّين محمود زنكي، فتجدّد بحلب بعد موته اختلاف بين السنة والرافضة، فقتل من الطائفتين خلقٌ. وكان ملك نور الدين قد اتسع جِدًّا وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَبِالْيَمَنِ ، وقد عمرت الشام في زمانه لعدله وحسن سيرته [٨].

وَكَانَ أَسْمَرَ، طَوِيلَ الْقَامَةِ، حَسَنَ الصُّورَةِ، حُلْوَ الْعَيْنَيْنِ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وقد أطال العلماء في مدح هذا السلطان وذكروا بعض خصاله وفضائله لأنه كان قد جمع بين التقوى والعدل والحزم والحكمة والرحمة بالرعية والجهاد وغير ذلك.

قَالَ أَبُو الْحسن ابْن الْأَثِير: (طَبَّقَ ذِكْرُهُ الْأَرْضَ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ. وقد طالعت تواريخ الْمُلُوك الْمُتَقَدِّمين قبل الْإِسْلَام وَفِيه إِلَى يَوْمنَا هَذَا فَلم أر فِيهَا بعد الْخُلَفَاء الرَّاشِدين وَعمر بن عبد الْعَزِيز ملكا أحسن سيرة من الْملك الْعَادِل نور الدّين وَلَا أَكثر تحرّيا للعدل والإنصاف مِنْهُ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وَجِهَاد يتجهز لَهُ ومظلمة يزيلها وَعبادَة يقوم بهَا وإحسان يوليه .. فَلَو كَانَ فِي أمة لافتخرت بِهِ فكيف بَيت وَاحِد.

(٨)ينظر: زبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم: صـ ٣٥٨.

أما زهده وعبادته وَعلمه فَإِنَّهُ كَانَ مَعَ سَــعَة ملكه وَكَثْرَة ذخائر بِلَاده وأموالها لَا يَأْكُل وَلَا يلبس وَلَا يتصَرَّف فِيمَا يَخُصُّهُ إِلَّا من ملك كَانَ لَهُ قد اشْتَرَاهُ من سَهْمه من الْغَنِيمَة وَمن الْأَمْوَال المرصدة لمصَالح الْمُسلمين أحضر الْفُقَهَاء واستفتاهم فِي أَخذ مَا يحل لَهُ من ذَلِك فَأخذ مَا أفتوه بحله وَلم يتعده إِلَى غَيره الْبَتَّةَ قال ابْن الْأَثِير وَكَانَ – رحمه الله – يصلى كثيرا من اللَّيْل وَيَدْعُو ويستغفر وَيقْرَأ وَلَا يزَال كَذَلِك إِلَى أَن يركب

(جمع الشجَاعَة والخشوع لرَبه ... مَا أحسن الْمِحْرَاب فِي الْمِحْرَاب)

قَالَ وَكَانَ عَارِفًا بالفقه على مَذْهَب الإِمَام أبي حنيفَة رضي الله عنه لَيْسَ عِنْده تعصب بل الْإِنْصَاف سجيته فِي كل شَيْء وَسمع الحَدِيث وأسمعه طلبا لِلْأجرِ، وعَلى الْحَقِيقَة فَهُوَ الَّذِي جدد للملوك اتِّبَاع سنة الْعدْل والإنصاف وَترك الْمُحرمَات من المأكل وَالْمشْرَب والملبس وَغير ذَلِك فَإِنَّهُم كَانُوا قبله كالجاهلية همُّ أحدهم بَطْنه وفرجه لَا يعرف مَعْرُوفا وَلَا يُنكر مُنْكرا حَتَّى جَاءَ الله بدولته فَوقف مَعَ أَوَامِر الشَّرْع ونواهيه وألزم بذلك أَتْبَاعه وَذَوِيهِ فاقتدى بِهِ غَيره مِنْهُم واستحيوا أَن يظْهر عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ (وَمن سنّ سنة حَسَنَة كَانَ لَهُ أجرهَا وَأجر من عمل بهَا إِلَى يَوْم الْقِيَامَة [٩])اهـ.

قَالَ : (وَأما عدله فَإِنَّهُ كَانَ أحسن الْمُلُوك سيرة وأعدلهم حكما فَمن عدله أَنه لم يتْرك فِي بلد من بِلَاده ضريبة وَلَا مكسا وَلَا عشرا بل أطلقها رَحْمَة الله جَمِيعهَا فِي بِلَاد الشَّام والجزيرة جَمِيعهَا والموصل وأعمالها وديار مصر وَغَيرهَا مِمَّا حكم عَلَيْهِ وَكَانَ المكس فِي مصر يُؤْخَذ من كل مئة دِينَار خَمْسَة وَأَرْبَعُونَ دِينَارا فأطلقها وَهَذَا لم تتسع لَهُ نفس غَيره

---

(٩)الباهر: لابن الأثير: ١٦٣ – ١٦٥ والكامل: ٩/ ٣٩٤ له والروضتين لأبي شامة : ١/ ٣٣.

وَكَانَ يتحَرَّى الْعدْل وينصـف الْمَظْلُوم من الظَّالِم كَائِنا من كَانَ القوى والضـعيف عِنْده فِي الْحق سَوَاء وَكَانَ يسمع شكوى الْمَظْلُوم ويتولى كشف حَاله بِنَفسِهِ وَلَا يكل ذَلِك إِلَى حَاجِب وَلَا أَمِير فَلَا جَرَمَ سَار ذكره فِي شَرق الأَرْض وغربها(.

وقال أيضـا في بعض ما جاء من أخباره : (وَهَذَا غَايَة الْعدْل والإنصـاف بل غَايَة الْإِحْسَان وَهِي دَرَجَة وَرَاء الْعدْل فرحم الله هَذِه النَّفس الزكية الطاهرة المنقادة إِلَى الْحق الواقفة مَعَه)اهـ.

وقال ابن عساكر وهو معاصر له: (الملك العادل نور الدين وناصر أمير المؤمنين ... ثم قال بعد ثناءٍ عليه وذكر لبعض أخباره:(وأظهر بحلب السـنّة حتى أقام شـعار الدّين وغيّر البدعة التي كانت لهم في التّأذين وقمعَ بها الرّافضـة المبتدعة ونشرـ فيها مذاهب أهل السـنّة الأربعة وبنى بها المدارس ووقف الأوقاف وأظهر فيها العدل والإنصـاف قال: وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش ثابتُ القَدَم شـديد الانكماش حسـنُ الرمي بالسّـهام صـليب الضَّربـب عند ضـيق المقام يقدُم أصـحابه عند الكرّة ويحمي منهزِمَهم عند الفرّة ويتعرّض بجهده للشـهادة.. فالله يقي مهجتَه من الأسـواءِ ويحْسِـن له الظّفر بجميع الأعداء فلقد أحسـن إلى العلماء وأكرمهم وقرب المتديّنين واحترمهم وتوخّى العدل في الأحكام والقضايا وألان كنَفه وأظهر رأفته بالرعايا.

وبنى في أكثر مملكته آدُرَ العدلِ وأحضرـها القضـاةَ والفقهاء لِلفَصْلِ وحضرـها بنفسه في أكثر الأوقاتِ واسـتمع من المتظلمين الدّعاوي والبيّنات طلباً للإنصـافِ والفضـل وحرصـاً على إقامة العدل وأَدرَّ على الضـعفاء والأيتام الصّـدقات، وتعهّد ذوي الحاجة من أولي التعفّف بالصّـلات حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين وأقام لهم الأطبّاء

والمعالجين وكذلك على جماعة العُميان ومعلّمي الخطّ والقرآن وعلي ساكني الحرمينِ ومجاوري المسجدين.

وأكرمَ أميرَ المدينة الحسين وأحسن إليه وأجرى عليه الضّيافة لما قدِم عليه، وجهّز معه عسكراً لحفظ المدينة وقام لهم بما يحتاجون إليه من المؤونة وأقطعَ أميرَ مكة إقطاعاً سنيّا وأعطى كلّا منهما ما يأكله هنيّاً مريّا.

ورفعَ عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس.

وأقطع أمراء العرب الإقطاعات لئلا يتعرّضوا للحجّاج بالنّحس وأمرَ بإكمال سُور مدينة الرّسول واستخراج العينِ التي بأحدٍ وكانت قد دفنتها السّيول.

ودعي له بالحرمين واشتهر صيته في الخافقين وعمر الرّبُطَ والخانقات والبيمارستانات وبنى الجُسور في الطرق والخاناتِ.

ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم بقدر ما يكفيهم، وكذلك صنع لما ملك سنجار وحرّان والرّها والرقّة ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر فما من بلدٍ منها إلا وله فيه حُسن أثرٍ وما من أهلها أحد إلا نظر له أحسن نظرٍ وحصّل الكثيرَ من كتُب العلوم ووقفها على طلّابها وأقام عليها الحفظة من نقلتها وطلّابها وأربابِها وجدّد كثيراً من ذي السبيل وهدى بجهده إلى سواء السبيل وأجهد نفسه في جهاد أعداء الله وبالغ في حربهم وتحصّل في أسره جماعة من أمراء الفرنج خذلهم الله [١٠])اهـ.

(١٠)تاريخ ابن عساكر:٥٧/ ١٢٠.

ثم ذكر الحافظ ابن عساكر بعض أولئك الأمراء من الفرنج وذكر كثيرا من غزواته وظفره بالفرنج والروم ومعاركه معهم. وقال: (وظهرت - يعني به وبجيشه - كلمة أهل السنة بالديار المصرية وخطب فيها للدولة العباسية بعد اليأس واراح الله من بها من الفتنة ورفع عنهم المحنة قال: ومع ما ذكرتُ من هذه المناقب كلها ..فهو حسن الخط والبنان متأتٍّ لمعرفة العلوم بالفهم والبيان كثيرُ لمطالعتها مائل إلى نقلها مواظبٌ حريص على تحصيل كتب الصّحاح والسّنن مقتنٍ لها بأوفر الأعواض والثّمن كثير المطالعة للعلوم الدينية متبع للآثار النبويّة مواظبٌ على الصّلوات في الجماعات مراعٍ لأدائها في الأوقات مؤدٍّ لفروضها ومسنوناتها .. عاكف على تلاوة القرآن على الأيام حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام كثير الدّعاء والتّسبيح .. عفيف البطن والفرج مقتصد في الإنفاق ... برئ من التنجم والتطير مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الصويب الرصين والاقتداء بسيرة السلف الماضين والتشبّه بالعلماء والصالحين والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيِّره ..قال: وأكثر ما أخذه من البلدان يتسلّمه من أهله بالأمان ووفى لهم بالعهود والإيمان .. فالله يديم على الرعية ظله وينشر فيهم رأفته وعدله ويبلّغه في دينه ودنياه مأمولَه، ويختم بالسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير وعلى ما يشاء قدير)هـ. باختصار يسير.

والحافظ ابن عساكر شيخ الشام في عصره حفظاً ومعرفة وتحرّياً. وقد توفي سنة (٥٧١) بعد وفاة نور الدين بأقل من عامين وكان قد كتب هذه الترجمة في تاريخه قبل وفاة نور الدين - رحمهما الله - وألحقنا بالصالحين من عباده. آمين.

وكان بدمشق الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان نور الدّين صبي صغير قيل عمره عشر سنين وتحركت الفرنج بالسواحل فاستنجد بصلاح الدّين في مصر. وبلغ صلاح الدّين نزول الفرنج على مدينة بانياس وقد صالحهم الأمراء وأهل دمشق وهادنوهم على مال وأسارى يطلقون. فغضب صلاح الدّين وأرسل يوبّخ بعض الأمراء.

قصّة الذين سعوا في إعادة دولة الفاطميين بني عُبيد

في كلِّ دولةٍ من الدّول يكون لأناسٍ حظوة وحظّ دون آخرين فتبطل مصالحهم أو تضعف عند زوال تلك الدولة وقد كانت دولة العبيديين نافعة لأناس فأبعدوا، فأراد جماعة من شيعة العبيديين إقامة الدعوة وردَّها، وفيهم بعض القضاة والجند والأعيان ووافقهم على ذلك جماعة من أمراء صلاح الدّين، وعينوا الخليفة والوزير، واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقليّة والشّام إلى مصر ليشغلوا صلاح الدّين بهم ويخلُو لهم الوقت ليتمّ مكرهم ثم إنّ صلاح الدّين علم بحيلتهم ومكرهم فاحترزَ وعمِلَ هو عليهم حيلةً فتمّ القبضُ عليهم وقتلَ رؤوسهم وأمّا الذين نافقوا على صلاح الدّين من جنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم بأنه علِم بهم. وهذا من حكمته وكرم أخلاقه.

وجاء أسطول الفرنج من صقلّية ومعهم جيشٌ كبيرٌ، فنازلوا الإسكندرية بغتةً ثمّ إنّ صلاحَ الدّين أنجدهم واقتتلوا فانتصروا عليهم واقتحم المسلمون البحر، فغرّقوا المراكب وحرَقوها إلا مَنْ نجا.

وفيها كما ذكر الذهبي قصة وعظ الشهاب الطوسي في بغداد، وقوله: ابن ملجم لم يكفر بقتله علياً رضي الله عنه، فرموه بالآجرّ من كل ناحية، وثارت عليه الشيعة، ولولا

الغلمان الذين حوله لقتل. ولما هم الميعاد الآخر بالجلوس، تجمّعوا ومعهم قوارير النفط ليحرقوه، فلم يحضر، فأحرقوا منبره الخ.

وفي هذه القصة وأمثالها عبرٌ.

وقد كان في بغداد شيعة وسنّة ولكن كان السنة في عهود الدولة الأولى والقرون الأولى أكثرية غالبة ثمّ كثر التشيع فيها وبقي أكثرها سنة في كثير من العصور فكان يحدث بين الفريقين اقتتال وتنافسٌ .

سنة سبعين وخمسمائة

فيها ملك صلاح الدّين دمشق بلا قتالٍ، فقد علم صلاح الدين أن ولد نور الدين الصالح اسماعيل لا يستقل بأعباء الملك لاتساع أقطاره مع صغر سنه فخرج من مصر ودخل دمشق بغير قتال واتبع طريقة نور الدين في عمارة دمشق والإحسان إلى أهلها ثمّ نازل صلاح الدّين حمص، ونصبت المجانيق على قلعتها حتى دكتها.

وسار إلى حماة فملكها ثم سار إلى حلب وحاصرها إلى آخر الشهر، واشتد على الصالح إسماعيل ابن نور الدّين بها الحصار.

وفيها أرسل صلاح الدّين خطابا إلى الخليفة العباسي في بغداد وفيه ذكر ما فتحه صلاح الدّين من البلدان وجهاد للفرنج في البحر وغيره وطلب فيه تقليدا بالسلطنة على مصر واليمن والمغرب والشام منه.

وفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

فيها قَصَدَ صلاح الدين بِلَادَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وكانوا قد عاثوا فساداً وكان الناس يخافونهم لشدة فتكهم وخبثهم، فخرّب بلدهم، وَحَصَرَ قَلْعَةَ مِصْيَافَ، وَهِيَ أَعْظَمُ حُصُونِهِمْ، فَنَصَبَ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقَ، وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ، فَأَرْسَلَ سِنَانٌ مُقَدَّمُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ إِلَى شِهَابِ الدِّينِ الْحَارِمِيِّ، صَاحِبِ حَمَاةَ وَهُوَ خَالُ صَلَاحِ الدِّينِ، يَسْأَلُهُ أَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمْ وَيُصْلِحُ الْحَالَ وَيَشْفَعُ فِيهِمْ، وَيَقُولُ لَهُ: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ قَتَلْنَاكَ وَجَمِيعَ أَهْلِ صَلَاحِ الدِّينِ وَأُمَرَائِهِ، فَحَضَرَ شِهَابٌ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ وَشَفَعَ فِيهِمْ وَسَأَلَ الصَّفْحَ عَنْهُمْ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَصَالَحَهُمْ، وَرَحَلَ عَنْهُمْ. وكان عَسْكَرُ صلاح الدين قَدْ مَلُّوا مِنْ طُولِ القتال والمقام.

وفيها سافر صلاح الدّين إلى الإسكندرية، وسمع فيها من الإمام الحافظ أبي طاهر أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ السِّلَفِي، وتردّد إليه مرات عديدة وأطال السماع لحديث النبي صلّى الله عليهِ وسلّم وتشرف بالجلوس بين يدي هذا الإمام الذي كان من الحفّاظ وكان كثير الرحلة والشيوخ وعالي الإسناد جداً، وأسمع منه ولديه: الملك العزيز، والملك الأفضل. وسيأتي أنه رجع للسماع منه وحضور مجلسه في سنة (٥٧٦هـ).

ثمّ عاد صلاح الدين إلى مصر.

وفيها أَمَرَ صَلَاحُ الدِّينِ بِبِنَاءِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي بقرب قَبْرِ الشَّافِعِيِّ رحمه الله بِمِصْرَ، وَعَمِلَ بِالْقَاهِرَةِ بِيمَارِسْتَانَ (مستشفى)، وَوَقَفَ عَلَيْهِمَا الْوُقُوفَ الْعَظِيمَةَ الْكَبِيرَةَ.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

فيها قصة نجاة صَلَاحُ الدّين يُوسُفُ

سار صَلَاحُ الدّين من مِصْرَ إِلَى الشَّامِ لغزو الْفِرِنْجِ، ومعه جيش كبير فوصلوا عسْقَلَانَ فقاتلوا من لقيهم وَتَفَرَّقُوا مُغِيرِينَ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْفِرِنْجَ لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ عَسْكَرٌ انْبَسَطُوا، وَسَارُوا فِي الْأَرْضِ مُطَمَئِنِّينَ، وَوَصَلَ صَلَاحُ الدّين إِلَى الرَّمْلَةِ للغزو فَوَصَلَ إِلَى نَهْرٍ، فَازْدَحَمَ النَّاسُ لِلْعُبُورِ، فَلَمْ يَرْعَهُمْ إِلَّا وَالْفِرِنْجُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ مَعَ صَلَاحِ الدّين بَعْضُ الْعَسْكَرِ، لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ تَفَرَّقُوا فِي طَلَبِ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَقَفَ لَهُمْ وَتَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَقِيُّ الدّين عُمَرُ ابْنُ أَخِي صَلَاحِ الدّين، فَبَاشَرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ عَمِّهِ، فَقُتِلَ مِنْ أَصْحَابِهِ جَمَاعَةٌ، وَكَذَلِكَ مِنَ الْفِرِنْجِ، وَكَانَ لِتَقِيِّ الدّين وَلَدٌ اسْمُهُ أَحْمَدُ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الشَّبَابِ أَوَّلُ مَا تَكَامَلَتْ لِحْيَتُهُ فَأَمَرَهُ أَبُوهُ بِالْحَمْلَةِ عَلَيْهِمْ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ وَقَاتَلَهُمْ وَعَادَ سَالِمًا قَدْ أَثَّرَ فِيهِمْ أَثَرًا كَثِيرًا، فَأَمَرَهُ بِالْعَوْدَةِ إِلَيْهِمْ ثَانِيَةً، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ فَقُتِلَ شَهِيدًا رحمه الله ثم تَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَحَمَلَ بَعْضُ الْفِرِنْجِ عَلَى صَلَاحِ الدّين حَتَّى كَادَ يَصِلُ إِلَيْهِ، فَقُتِلَ الْفِرِنْجِيُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَضَى صلاح الدّين مُنْهَزِمًا، يَسِيرُ قَلِيلًا وَيَقِفُ لِيَلْحَقَهُ الْعَسْكَرُ إِلَى أَنْ دَخَلَ اللَّيْلُ، فَسَلَكَ الْبَرِّيَّةَ إِلَى أَنْ مَضَى فِي نَفَرٍ يَسِيرٍ إِلَى مِصْرَ، وَلَقُوا فِي طَرِيقِهِمْ مَشَقَّةً شَدِيدَةً وَقَلَّ عَلَيْهِمُ الْقُوتُ ، وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِنْ دَوَابِّ العسكر عطشا ووصل سالماً إلى مصر فكان كما قيل:

المجد عوفي إذ عُوفيت والكرمُ. وقد أخر الله مدّته لأمور يعلمها وليجعله نكالاً على الظالمين ثمّ يحرر القدس على يديه وينشر به العدل والخير.

قال ابن الأثير: (رَأَيْتُ كِتَابًا كَتَبَهُ صَـلَاحُ الدِّينِ بِخَطِّ يَدِهِ إِلَى أَخِيهِ شَـمْسِ الدَّوْلَةِ تُورَانْشَـاهْ ،يَذْكُرُ فيه الْوَقْعَةَ ومما قاله فيه: (لَقَدْ أَشْرَفْنَا عَلَى الْهَلَاكِ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَمَا أَنْجَانَا اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ إِلَّا لِأَمْرٍ يُرِيدُهُ سُبْحَانَهُ [١١])اهـ.

وفيها حاصَرَ الْفِرِنْجُ مَدِينَةَ حَمَاةَ، وَكَادُوا يَمْلِكُونَ الْبَلَدَ، ولكن رحلوا عنها بعد قتالٍ شديد وبلاء عظيم.

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

فيها أغارت الفرنج على بلدانٍ منها أعمال دمشـق، فسـار لحربهم فرّخشـاه ابن أخي السلطان صلاح الدّين في ألف فارس فهزمهم.

وفيها سَارَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْفِرِنْجِ بِالشَّامِ إِلَى مَدِينَةِ حَمَاةَ، وَشنوا الغارات وخَرَّبُوا الْقُرَى، وَأَسَرُوا، وَقَتَلُوا، فَلَمَّا سَـمِعَ الْعَسْـكَرُ الْمُقِيمُ بِحَمَاةَ بهم سَـارُوا إِلَيْهِمْ، فَالْتَقَوْا وَاقْتَتَلُوا فانتصر المسلمون وانْهَزَمَ الْفِرِنْجُ.

وفيها انْقَطَعَتِ الْأَمْطَارُ عن الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْعِرَاقِيَّةِ، وَالْمَوْصِلِ وغيرها، وَاشْتَدَّ الْغَلَاءُ في كثير من البلدان وَاسْتَسْقَى النَّاسُ ، فَلَمْ يُسْقَوْا، وقلَّت الْأَقْوَاتُ جداً وَأَكَلَتِ النَّاسُ الْمَيْتَةَ وَدَامَ كَذَلِكَ إِلَى آخرِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ثم وقع الفرَجَ.

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

([١١])الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٩/٤٢٩.

كَانَ الْفِرِنْجُ قَدْ بَنَوْا قبل ذلك حِصْنًا مَنِيعًا يُقَارِبُ بَانِيَاسَ فَلَمَّا سَمِعَ صَلَاحُ الدّين بِذَلِكَ سَارَ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى بَانِيَاسَ، وَأَقَامَ بِهَا، وَبَثَّ الْغَارَاتِ عَلَى الْفِرِنْجِ، ثُمَّ سَارَ إِلَى الْحِصْنِ لِيُخَرِّبَهُ فلما دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ لَمْ يُفَارِقْ بَانِيَاسَ بَلْ أَقَامَ بِهَا وَخَيْلُهُ تُغِيرُ عَلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ.

وفيها كانت وقعة َعند مرج العيون قَاتَلَ الْفِرِنْجُ المسلمين قِتَالًا شَدِيدًا ثم انتصر المسلمون بقيادة صلاح الدّين.

وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْحِصْنَ المذكور سابقا بعد حصار وقتال وَأَطْلَقُوا مَنْ كَانَ بِهِ مَنْ أَسَارَى الْمُسْلِمِينَ.

وفيها توفي الخليفة العباسي الملقب بـ الْمُسْتَضِيءُ بِأَمْرِ اللهِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بن يوسف الْمُسْتَنْجِدِ وأمّه أُمُّ وَلَدٍ أَرْمِنِيَّةٌ وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ نَحْوَ تِسْعِ سِنِينَ وَسَبْعَةِ أَشْهُرٍ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَكَانَ عَادِلًا حَسَنَ السِّيرَةِ فِي الرَّعِيَّةِ، كَثِيرَ الْبَذْلِ لِلْأَمْوَالِ، وَكَانَ النَّاسُ مَعَهُ فِي أَمْنٍ عَامٍّ وَإِحْسَانٍ شَامِلٍ، وَطُمَأْنِينَةٍ وَسُكُونٍ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ، وَكَانَ حَلِيمًا، قَلِيلَ الْمُعَاقَبَةِ عَلَى الذُّنُوبِ، مُحِبًّا لِلْعَفْوِ وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُذْنِبِينَ. وأثنى عليه الأئمة كابن الجوزي وابن النجار وابن الأثير والذهبي وغيرهم.

سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها تُوُفِّيَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي بْنُ مَوْدُودِ بْنِ زَنْكِي، صَاحِبُ الْمَوْصِلِ وَعَمْرُهُ حِينَئِذٍ نَحْوُ ثَلَاثِينَ سَنَةً. وَكَانَتْ وِلَايَتُهُ عَشْرَ سِنِينَ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ، وَكَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ، وَكَانَ عَاقِلًا وَقُورًا، عَفِيفًا.

وفيها توجه صلا الدّين إلى الإسكندرية، وشاهد الأسوار التي جدّدها، وقال: نغتنم حياة الإمام أبي طاهر السِّلَفِي قال كاتبه فحضرنا عنده وسمِعنا عليه الموطّأ. قلتُ: وقد تقدم ذكر سماعه وحضوره لدروس ومجلس هذا الإمام شيخ المحدثين في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة. وَفِيهَا تُوُفِّيَ هذا الْحَافِظُ واسمه: أَبُو طَاهِرٍ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سِلَفَةَ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ.

سَنَةُ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ

فيها سَارَ نَائِبُ صَلَاحِ الدّين بِدِمَشْقَ إِلَى أَعْمَالِ كَرَكٍ وَنَهَبَهَا. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْبُرُنْس أَرْنَاطَ، صَاحِبَ الكَرَك [12] ، كَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْفِرِنْجِ ومن أَشَدِّهِمْ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ، فَتَجَهَّزَ، وَجَمَعَ عَسْكَرَهُ وَعَزَمَ عَلَى الْمَسِيرِ فِي الْبَرِّ إِلَى تَيْمَاءَ، وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى تِلْكَ النَّوَاحِي الشَّرِيفَةِ بزعمه فَسَمِعَ عِزُّ الدّين فَرخَشَاهْ ذَلِكَ، فَجَمَعَ الْعَسَاكِرَ الدِّمَشْقِيَّةَ وَسَارَ إِلَى بَلَدِهِ وَنَهَبَهُ وَخَرَّبَهُ، وَعَادَ إِلَى طَرَفِ بِلَادِهِمْ، وَأَقَامَ بِهَا لِيَمْنَعَ الْبُرُنْسَ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، فَامْتَنَعَ بِسَبَبِهِ مِنْ مَقْصِدِهِ وبطَلَ كيدُه.

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

فيها افتتح صلاحُ الدّين حرّان، وسنجار، ونصيبين، والرّقّة، وغيرها ثمّ رجع إلى حلب فتملّكها.

([12])تقدم التعريف بها.

وفيها بعث صلاح الدّين أخاه سيفَ الإسلام طغتكين على مملكة اليمن، وأمر بإخراج نوّاب أخيه شمس الدّين تورانشاه منها، وكان قد توفي قبل ذلك في سنة (٥٧٦ هـ) وشمس الدّين هذا أكبر سنّاً من صلاح الدّين.

وفيها خرج صلاح الدّين من مصر غازيًا، وما تهيّأ له العود إليها لانشغاله بجهاد الصليبيين وبأعباء الدولة، هذا مع كونه قد عاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة.

سنة تسع وسبعين وخمس مئة

في أولها نازل صلاح الدّين مدينة حلب وحاصرها واقتتلوا وواليها اسمه: عِمَادُ الدِّينِ زَنْكِي ثم وقع التفاوض أن يسلم حَلَبَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ وَيَأْخُذَ عِوَضَهَا سِنْجَارَ، وَنَصِيبِينَ، وَالْخَابُورَ، وَالرَّقَّةَ، وَسَرُوجَ، وَجَرَتِ الْيَمِينُ عَلَى ذَلِكَ.

قال ابن الأثير: وَبَاعَهَا بِأَوْكَسِ الْأَثْمَانِ، أَعْطَى حِصْنًا مِثْلَ حَلَبَ، وَأَخَذَ عِوَضَهَا قُرًى وَمَزَارِعَ.

وفي ذلك يقول قَاضِيَ دِمَشْقَ محيي الدّين ابن المنتجب يمدح صلاح الدين بأبيات منها:

وَفَتْحُكُمْ حَلَبًا بِالسَّيْفِ فِي صَفَرٍ ... مُبَشِّرٌ بِفُتُوحِ الْقُدْسِ فِي رَجَبِ

فَوَافَقَ فَتْحُ الْقُدْسِ فِي رَجَبٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ - كما سيأتي -.

وهذا معدود في عجائب الموافقات وصادق التوقعات.

وَكَانَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قُتِلَ عَلَى حَلَبَ تَاجُ الْمُلُوكِ بُورِيٌّ، أَخُو صَـلَاحِ الدِّينِ الْأَصْـغَرُ، وَكَانَ فَارِسًا شُجَاعًا، كَرِيمًا حَلِيمًا، فيه محاسن وخير، وقد طُعِنَ فِي رُكْبَتِهِ فَانْفَكَّتْ، فَمَاتَ مِنْهَا بَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ الصُّلْحُ بَيْنَ عِمَادِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ عَلَى تَسْلِيمِ حَلَبَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا صَلَاحُ الدِّينِ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ أَمْرُ الصُّلْحِ حَضَرَ صَلَاحُ الدِّينِ عِنْدَ أَخِيهِ يَعُودُهُ، وَقَالَ لَهُ: هَذِهِ حَلَبُ قَدْ أَخَذْنَاهَا ، فَقَالَ:

ذَلِكَ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ، وَوَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتَهَا غَالِيَةً حَيْثُ تَفْقِدُ مِثْلِي. فَبَكَى صَلَاحُ الدِّينِ وَأَبْكَى.

وهذا وغيره مما فقده صلاح الدّين من قرلباته الأدنين وإخولنه وأصحابه المقربين في معاركه وجهاده يدلّ على أنه لم ينل تلك المعالي إلا بفقد حبيبٍ وطولِ اجتهاد وركوب مشاقّ عظيمة وتعرض لمخاطر وصعاب كادت تذهب في بعضها مهجته، وهذا حال كثير من الفضلاء من القادة والسّلاطين وغيرهم.

وسأذكر ترجمة هذا القائد العظيم – فيما بعد بإذن الله – لما فيها من فوائد جليلة، ولعلاقته الأكيدة بالشّام.

وكان الفرنج قد صنعوا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز وكان المسلمون بمصر قد عَمَروا مراكبَ، وفرّقوها فرقتين فلحِقوا بهم وبطلت خطّة الفرنج.

وفيها غزا السلطان صلاح الدين مدناً أخرى وحصونا مثل بَيْسَانَ.

وفيها سار السلطان صلاح الدّين بجيوشه إلى الكَرَك فحاصرها، ثمّ جاءته الأخبار باجتماع الفرنج، فترك الكَرَك، وسار إليهم بعد أنْ كان أشرفَ على أخذها، فخالفوه في الطريق إلى الكَرَك، وأتوا إليها بجموعهم. فسار إلى نابلس، ثمّ عاد إلى دمشق.

وَاسْتَصْحَبَ صلاح الدين أَخَاهُ الْعَادِلَ أبا بكر إِلَى دِمَشْقَ، وَولاه مَدِينَةَ حَلَبَ وَقَلْعَتَهَا وَأَعْمَالَهَا وَمَدِينَةَ مَنْبِجَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَسَيَّرَهُ إِلَيْهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ.

والملك العادل أخو صلاح الدّين ولكنه عاش بعد صلاح الدين مدة طويلة فقد توفي العادل سنة (٦١٥هـ) و كان صلاح الدين قد اسْتَخْلَفَهُ بِمِصْرَ ثِقَةً بِعقله وحسن تدبيره، وكان ذَا رَأْيٍ سَدِيدٍ، فيه دهاء وسياسة. و له أخبار عجيبة طويلة.

هو الذي سيتولى ملك ديار مصر وغيرها بعد أمور طويلة جرت بعد وفاة صلاح الدين من اختلاف أبناء السلطان صلاح الدين وغير ذلك.

وقد انتقل حكم الدّولة الأيوبية من أبناء صلاح الدين إلى أبناء العادل هذا.